بعض جوانب التحليل النفسى فى الولايات المتحدة الأمريكية*

إذا كان حقا ما يقوله هوايت L. A. White من أن العلم هو بالضبط « فعل صناعة العلم » ، وهذا الفعل إنما يتم على أيدى أشخاص متحققين فى الواقع الخارجى وليسوا « علماء » مجردين ، فلا شك أن العلم تحدده ظروف البيئة التى ينشأ فيها .

والواقع أن السمعة الهائلة التى فاز بها التحليل النفسى فى الولايات المتحدة ظاهرة أميريكية أولا وقبل كل شيء . وإن آثاره لتمتد إلى الطب العقلى بوجه عام ، والدراسات السيكولوجية الأكاديمية ، والدراسات الاجتماعية . وإنه ليتضخم حتى يقدم معجما جديداً للمثقفين وأشباه المثقفين . فالتحليل النفسى فى أمريكا هو الآن مركز الثقل بالنسبة لهذا النوع من الدراسات . ذلك أن عدد الإخصائيين فيه قد تضخم بدرجة محسوسة لا سيما بعد أن لجأ إلى أمريكا كثير من ذوى الشهرة والنبوغ من رجاله العالميين بسبب الظروف السياسية فى أوروبا ، هذا إلى كثرة ما نشر من دراسات ذات طابع تحليلى . وإن الاتجاه الفرويدى ليقف فى مقدمة هذه الدراسات التى كان لها هذا المركز . وبالنسبة له تعتبر اتجاهات يونج وأدلر وشتكل ذات شهرة محدودة .

ولقد تجد آراء أدلر ويونج بعض الرواج لدى المتزمتين ، وذلك لتصغيرها من شأن الحافز الجنسى الذى ينتشر فى كتابات فرويد . وإن أدلر ليتفق وهوى الأخلاقيات البروتستانتية لاستمساكه بفكرة الإرادة volontariste ولما له من نزعة أخلاقية بل « ووصولية » أيضاً . أما صوفية يونج ونزعته الحيوية البرجسونية إلى حد ما فربما وجدت صدى خفيفاً فى الأعماق اللاشعورية لهذه الأمة الحديثة التى تشعر بحاجتها إلى عرف وتقاليد .

---

* هذا المقال تلخيص لمقال نشر بالعنوان نفسه فى مجلة :
"Les Temps Modernes", nos. 11 & 12, Aout — Septembre, 1946; par G. Devreux.

إن الشيء الذى لا يمكن إنكاره أن التحليل النفسى الأمريكى يتعارض صراحة مع التحليل النفسى الأوربى ولا سيما الطب العقلى الفرنسى . ذلك أن التحليل النفسى الأمريكى يرفض الامتزاج بالفلسفة ، لأن الفلسفة التى ألهمت فرويد نظرياته هى فى جوهرها تشاؤمية ، والتشاؤم لا يستطيع أن يقبله الأمريكى ، ومن ثم فمن الشيق أن نلاحظ أن أهم هجمة وجهت إلى الفلسفة التشاؤمية الفرويدية فى الولايات المتحدة إنما قامت بها محللة سكندينافية هى كارن هورنى K. Horney . على أن هذا الابتعاد عن الفلسفة ربما كان مرجعه كذلك إلى أن معظم المشتغلين بالتحليل النفسى فى الولايات المتحدة هم من الأطباء الذين غلبت اهتماماتهم الكلينيكية على ما قد يكون لهم من اهتمامات فلسفية ، بينما كان كثيرون من تلامذة فرويد فى أوربا من السيكولوجيين غير الأطباء . وهذا التخلف الفلسفى ربما كان المميز الأول للتحليل النفسى الأمريكى من التحليل النفسى عامة والطب العقلى فى فرنسا خاصة . والحق أن اللوم واقع على الأمريكان والفرنسيين ؛ فالأوائل لم يعنوا بالفلسفة أية عناية ، بينما الآخرون لم يستطيعوا التحرر من قبضة الفلسفة ، وأقول قبضة الفلسفة لأنى أرى الكثيرين من السيكولوجيين والأطباء العقليين والمحللين النفسيين فى فرنسا ، ليسوا فلاسفة بالمعنى الصحيح ، ولكنهم فقط حاملون لإجازات فى الفلسفة . والرأى عندى أن خير بيئة وجدها التحليل النفسى هى إنجلترا .

ومن مميزات السيكولوجيا الأميريكية كذلك اتجاهها البيولوجى ، ولهذا الاتجاه أصول فى الآراء البيولوجية لفرويد . والواقع أن هذه الآراء لدى فرويد لم تكن مصدراً لثراء التحليل النفسى بقدر ما كانت مصدراً للخلط والإبهام . غير أن أصالة الكثيرين من المحللين نجمت فى تحويل نقطة الضعف هذه إلى مصدر من مصادر القوة . ومن المعلوم أن الطب السيكوسامانى أصاب توفيقاً عظيما فى الولايات المتحدة بعد الجهود التى بذلها جليف S. E. Jelliffe . ولا نستطيع أن نغفل جهود جماعة شيكاغو فى مجال « الطب الإنسانى » أو ما يمكن أن نسميه « الطب الكلى » . على أننا يجب ألا نفهم من ذلك أن الاهتمام بعلاج الشخصية ككل ، وقف على المحللين .

ويستخدم بعض الإثنولوجيين اختبار رورشاخ ، وهو الاختبار الذى تعهدته سويسرا بالتنمية .

وكذلك يستخدم الاثنولوجيون مع البدائين اختبار تات TAT وهو عبارة عن تقديم صورة للشخص فيها موقف بين عدة أشخاص ، ويطلب إلى المختبر أن يروى ما يتخيله من أحداث أدت إلى هذا الموقف وما ينتظر أن يتأدى إليه هذا الموقف . وقد تعهد مرى H. Murray وجماعته فى العيادة السيكولوجية بجامعة هارفارد هذا الاختبار بالعناية الكافية . إلا أن هذا الاختبار يعترض على استخدامه لدى الاثنولوجيين إذ أن الأشخاص الموجودين فى الصور من الجنس الأبيض وهم لا شك فى موقف لا يكاد يعنى شيئاً بالنسبة للبدائيين إذ لم ينبع من داخل حضارتهم ٪ أما اختبار رورشاخ فأمره يختلف عن ذلك . إذ أنه لا يقدم للمختبر سوى عدد من بقع الحبر . وقد تعهد الدكتور ليفى D. M. Lévy طريقة لتحليل الأطفال ، وذلك بأن يتناولوا دمية من مادة يستطيعون أن يحطموها ويعيدوا تشكيلها ليكونوا منها مشاهد تمثل حياتهم العائلية . وسارع الاثنولوجيان هنرى وزوجته M. et Mme. Henry إلى استخدام هذه الطريقة فى بحوثهما الاثنوجرافية . أما محاولات مورينو Dr. Moreno لتحليل البالغين (ويمكن أن نطلق على طريقته اسم (sociometrique et psychodramatique فلم تجد ترحيباً لدى المحللين .

وربما استطعنا أن نتحدث عن تأثير دارون فى التحليل النفسى بأمريكا ، ذلك أن ألبورت G. W. Allport . أجرى أبحاثاً مدهشة فى مسألة الحركات التعبيرية ومن المعلوم أن دارون هو الذى افتتح هذا الفرع من الدراسات . والآن نشهد كثيرا من الملاحظات القيمة يقدمها فيرنزى Fe·enczi وجلوفر Glover حول السلوك الرمزى للجسم أثناء التحليل .

أما سلوكية وطسن والقول بالفعل المنعكس عند بشترف Bechterew وبافلوف فلم يكن لها أثر يذكر فى التحليل النفسى فى أمريكا ، ولا سيما آراء بافلوف ، ذلك لأن نظرياته فى علم النفس المرضى غير متفقة ونظريات فرويد .

كذلك لم يكن لأبحاث كورت لفين الطبولوجية أثر يذكر . وربما لا نستطيع أن نتحدث عن أثر لهذا الاتجاه اللهم إلا ما تم على يدى براون J. J. Brown ، ولا يفوتنا أن هذا الأخير قد تأثر من ناحيته ببعض المحللين النفسيين . ومما لا شك فيه أن النزعة الجشطلتية فلسفة أكثر منها تكنيك[1] .

(١) ولكن يجب ألا نغفل القيمة العلمية الكبرى للبحوث التجريبية التى قامت بها مدرسة لفين .

ولقد أدت الروح التجريبية الشائعة فى علم النفس الأمريكى ببعض الباحثين إلى تطبيق بعض الاختبارات التجريبية على عمليات قال بها فرويد . ولم يجروا تجاربهم على الآدميين فحسب بل أجروها على الجردان البيضاء أيضا . وعندما نذكر الأبحاث التجريبية فى هذا الصدد ينبغى لنا أن نذكر اسم سيرز Sears وآخرين .

وقد أدى هذا الاختبار التجريبى بمعظم المحللين إلى قبول كل أعمال فرويد ، وهنا موضع خطئهم فيما ترى الدكتورة كافى Cavé .

وتقوم فى جامعة بيل Yale مدرسة اجتماعية سيكولوجية بزعامة دولار وميللر Dollard & Miller . وهذه قد تأثرت بالتحليل النفسى وهى تحاول على ضوئه أن تفسر اكتساب المعرفة والعادات .

على أنه من الملاحظ أن التحليل النفسى مقتصر إلى الآن على معالجة الأغنياء . وقد يفيده حتى فى قيمته العلمية أن يكون أكثر ديمقراطية .

ثم إنه لكى يكون أكثر ديمقراطية يظهر أنه يجب أن يعدل تعديلا أساسيا :

١ — (ا) فيجرى عليه نوع من الاختصار abréviation وترى هورنى أنه ليس من الضرورى أن يسهب المحلل فى تحليل المريض فيصعد إلى طفولته المبكرة . وفى هذا يعارض كثير من المحللين ويتهمون هورنى ببعض الاتجاهات الأدلرية .

(ب) يجب أن تعدل العملية العلاجية نفسها بطريقة تضمن الإسراع فى الخطوات .

٢ — التحليل الجمعى ، أى يمارس على « جماعات » .

وتحاول المدارس الحديثة ، وهى متأثرة بالتحليل النفسى ، أن تعنى بالوقاية الذهنية للنشء ضد الصدمات العائلية . غير أن المؤلف يرى أنه لا يقوم أى دليل على الإقلال من الصدمات الاجتماعية . وما يزال الصراع على أشده بين العصرية الميكانيكية وبين الأيديولوجية البطريركية الصادرة عن المزارعين والحرفيين artisans وهذه الأيديولوجية هى السائدة .

وبالجملة فإن التحليل النفسى فى الولايات المتحدة يمضى الآن فى مرحلة انتقال . وما يزال أمامه الكثير لينجزه سواء فى وجوده بالولايات المتحدة أو فى وجوده بوجه عام . على أن أهم ما ينبغى له أن يتمه هو : التحول من مذهب إلى علم .

* * *